محاضرة الحضارة مفهومها وشروط قيامها ومراحلها

تعريف الحضارة :

إن تعريف الحضارة في معاجم اللغة لا تخرج عن كونها الإقامة في المدن، فابن منظور يقول أن الحضارة تعني الإقامة في الحضر وهي ضد البداوة [2]، وفي الشعر العربي قال القطامي التغلبي يفتخر بالبداوة :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا [1]

وجاء في المعجم الوسيط أن الحضارة ضد البداوة والحضر هم سكان المدن والقرى، والحاضرة تعني القوم الحضور وحاضرة الشيء القريبة منه، وفي القرآن الكريم جاءت كلمة حاضرة بهذا المعنى« وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ...» سورة الاعراف، الآية 163 ، وفي الاصطلاح الحضارة هي مرحلة سامية من مراحل التطور الانساني ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي[2]

ويرى ابن خلدون أن الحضارة هي غاية للعمران، ونهاية لعمره ومؤذنة بفساده، وأنهاغاية للبداوة، وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس، وذلك أن الترف والنعمة إذا حصلا لأهل العمران، دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة والتخلق بعوائدها، والتفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي يتأنق في أصنافه وسائر فنونه، كالملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية، والتأنق في كل واحد من هذه لا يحتاج إليها عند البداوة[3].

---

[2] ابن منظور ، لسان العرب ، ج11، ص907

[1] أبو العباس مجمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، تحقيق عبد الحميد هذاوي، وزارة الشؤون الاسلامية والدعوة والاوقاف، السعودية ، ج1، ص33

[2]مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط 2004 ، ط4 ، مكتبة الشروق الدولية القاهرة ، ص181

[3]عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة** ، ضبط و شرح و تقديم :محمد الإسكندراني، بيروت :دار الكتاب العربي، ط3، 2001، ص345

أما المفكر الكبير مالك بن نبي فيرى أن الحضارة هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد في كل طور من أطوار حياته المساعدة الضرورية، أما حسين مؤنس أن الحضارة هي ثمرة كل جهد قام به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان ذلك الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصود أم غير مقصود ، وسواء كانت الثمرة مادية أو معنوية[4]، أما إدوارد تايلور فيرى أن الحضارة هي ذلك الكل المركب الذي يحتوي على المعلومات، المعتقدات، الفنون، القيم الأخلاقية، القوانين، التقاليد وأية إمكانيات أو عادات يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع ما[5].

بينما يرى ويل ديورانت أن الحضارة هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وأن الحضارة تتألف من أربعة عناصر هي : الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون[6].

الحضارة والثقافة :

يتلاقى مصطلح الحضارة مع الثقافة عند الكثير من العلماء، حيث يرى المؤرخ والفيلسوف أزوالد شبنجلر Oswald Spengler أن الحضارة لها علاقة بالثقافة ، فالثقافة هي مرحلة النمو، وإذا وصل الأمر إلى الحضارة فهي النهاية ، أن الحضارة كينونة واعية لنظام عضوي ضخم واحد، نظام لا ينحصر فقط في العادة والأساطير والتقنية والفن، بل اللغة والتاريخ كذلك[7]، أما هربرت سبنسر Herbert Spenser فيقول أن الحضارة هي الثقافة العامة الكلية التي تسود المجتمع الكبير من حيث هو وحده متكاملة، ومن هذا المنطلق فإن الحضارة هي نفسها الثقافة .

---

[4] حسين مؤنس، الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص13

[5] أكرم ضياء العمري، **الإسلام و الوعي الحضاري**، جدة :دار المنارة لنشر و التوزيع،1982، ص27

[6] ويل ديورانت، قصة الحضارة ، ج1، ص13- 17

[7] أزوالد شبغلر، **تدهور الحضارة الغربية**، ترجمة أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، بيروت ج1، 1964 ، ص 12 -14

أما أرنولد تونبي فيقول أن الحضارة تختلف عن الثقافة فكلمة حضارة ترتبط بعمليات خلق جماعية لها بعض الاتساع، ويميز هذا الباحث بين المجتمعات التي يرى أن بعضها عرفت ثقافات ولم ترق إلى خلق حضارة مثل مجتمعات إفريقيا السوداء [8]

ونشير هنا إلى أن علماء الأنثروبولوجيا يستخدمون كلمة " ثقافة " بكثرة أكثر من الحضارة، ذلك أن كلمة " ثقافة " تشير في كتاباتهم إلى أسلوب الحياة السائدة في المجتمع، بصرف النظر عن درجة تقدم هذا المجتمع أو تخلفه، وإن كان هذا لا يمنع من أن بعض كتاباتهم تستخدم كلمة "حضارة " للإشارة إلى التنظيمات الأكثر تعقيداً وتفاضلاً

والجدير بالذكر أن هناك اختلاف بين الباحثين في تحديد مجالات الحضارة فهناك من جعله قاصرًا على نواحي التقدم المادي مثل أصحاب الفكر الألماني، وهناك من جعله شاملاً لكل أبعاد التقدم مثل المفكرين الفرنسيين.

الحضارة والمدنية :

نجد في المصطلحات الغربية كلمة"Civilization" وهي الترجمة الحرفية للحضارة، ويعود أصلها في اللغة اللاتينية إلى "Civilties" بمعنى مدنية، و"Civis"أي ساكن المدينة، و "Cities"وهو ما يُعرف به المواطن الروماني، ومن هذا يبدو أن للحضارة علاقة بالمدينة والمدنية.

والفرق بين الحضارة والمدنية تتمثل في أن الحضارة هي مجموعة الأفكار والمشاعر والأنظمة والمعارف والعادات والأخلاق والقوانين الّتي اكتسبها الإنسان من مجتمعه الّذي يعيش فيه، وهذه المنظومة هي الّتي تعطي للمجتمعات هويّتها وشخصيّتها، أما المدنية فهي فروع المعرفة التي تقدّم لنا سبل السيطرة الفنيّة على القوى الطبيعيّة، وهي المستوى العلمي والتقني والأشكال والوسائل المادّيّة الّتي يستعملها الإنسان في حياته اليوميّة ممّا لا يرتبط بوجهة نظره عن الحياة.

والعلاقة بين المصطلحين يكمن في أن المدنية هي قمة الهرم الاجتماعي والحضارة قاعدته، أي أن الحضارة تمثل الأخلاق والقيم والمثل بينما تمثل المدنية الجوانب المادية،

[8] أرلوند توينبي، **دراسة التاريخ** ، ص 16-17

والمدنية هي الأشكال المادية المحسوسة التي هي أساس الحضارات فعن طريقها تكسب الحضارة انتشارا وتأثيرا كبيراً.

نشأة الحضارة :

ومما لا شك فيه أن الحضارة إنما تمثل جهد جماعيا للإنسان، ولا يمكن تحديد مقاييس معينة لقيام حضارة أو الحكم عليها، لذلك فان الكثير من الباحثين يطلقون مصطلح الثقافة على الانجازات الحضارية التي تعود إلى فترة ما قبل التاريخ، ولكن يبقى السؤال المطروح هو متى ظهرت أول حضارة ؟ وما الانجازات التي يمكن أن ترقى إلى صفة الحضارة؟

كانت حياة الإنسان في ما قبل التاريخ غامضة فقد كان دائما التفكير في تحصيل رزقه اليومي الذي كان يتطلب منه الانتقال باستمرار بحثا عن مصادر الغذاء، وفي غالب الأحيان كان يعيش بمفرده أو في مجموعات صغيرة ، ولا يمكن اعتبار تلك المجموعات مجتمعات، والإنسان لم يعرف اللغة[*9] إلا في مرحلة لاحقة، حيث يعتقد بعض العلماء أن أجناس بشرية قد عرفت لغة بسيطة في مراحل معينة من حياتها على الأرض فإنسان نيادرتال[10] الذي عاش على الأرض منذ ما يقارب 200 ألف سنة عرف لغة بسيطة، ولم تكن لتلك المجموعات نظم وقوانين تحكمهم أو تتقيد بها، ويتطلب الأمر وجود علاقات وثيقة بين الأفراد لكي تظهر النظم والقوانين، ولكن مجمعات العصر الحجري الحديث قد تطورت وظهر فيها النظام القبلي والطبقي، وظهر مبدأ القائد والأتباع ، والقائد ربما كان زعيما دينا كاهنا أو شامان أو شيخ قبيلة .

---

[*] اللغة كما عرفها أبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة 392 هجري هي أصوات يعبر بها كل قوم عن إغراضهم ، ينظر: أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ، ج1 ، ص33

[10] انسان نياندرتال عثر على أول بقايا له في كهف بوادي "نياندر" بألمانيا ، لكن عثر على بقاياه فى كهف بجبل طارق وفى بلجيكا وجزر المانش وإيطاليا وكرواتيا وفلسطين وجنوب روسيا وسيبيريا وأوزبكستان وفي كوانتونج فى الصين وفي شمال إفريقيا ، يتميز بجمجمة كبيرة وحجم مخ كبير يبلغ حوالي 1450سم3 وعيون واسعة وجبهة متقهقرة ومسطحة وفك علوي بارز، وهو قصير القامة واشعري الجسم، عاش بين حوالي 200 ألفلا سنة و27 ألف سنة ، ينظر :
Jean-Jacques Hublin .,2000, Modern-Nonmodern Hominid Interactions: A Mediterranean Perspective, In: Geography Of Neanderthals And Modern Humans In Europe And The Greater Mediterranean, Edited By Ofer Bar-Yosef , David Pilbeam, Harvard University, USA, Pp157-182

شروط قيام الحضارة:

يرى موريس كروزيه أن الحضارة ليست حكرا على شعب معين وأنه حتى الأقوام المتوحشة كانت لها حضارة [11]، وكما أن الحضارة ليست حكراً على جنس معين، فليس لها مقياس محدد فإذا ما توفرت شروط معينة فإن الحضارة يمكن أن تقوم، فما هي تلك الشروط؟

ويذكر ويل ديورانت أن الحضارة مشروطة بطائفة من العوامل التي تستحث خطاها فتتطور أو تعوق مسارها فتضعف، وأولها هذه العوامل هي **العوامل الجيولوجية**، ذلك أن الحضارة إنما ظهرت في الفترات ما بين الجليدية وهي فترة ساد فيها الدفء بعد تراجع الجليد، وعندما عاود الجليد في الظهور وغمر الأرض اختفت مظاهر الحضارة وطمس منشآت الإنسان بركام من ثلوج وأحجار.

والعامل الثاني هو **العامل الجغرافي**، فحرارة الأقطار الاستوائية وما يجتاح تلك الأقطار من طفيليات لا تهيئ للمدنية أسبابها، والمطر كذلك عامل ضروري إذ أن الماء وسيلة الحياة، فقد يقضى الجفاف على الحضارات التي كانت مزدهرة في زمن ما، وقد يؤدي وفرة الماء إلى ازدهار مناطق أخرى ولو كانت بعيدة عن الطرق الرئيسية للنقل والاتصال، أما إذا ما كانت البلاد تتوفر على شواطئ تصلح كمرافئ طبيعية لأسطول التجاري فذلك جيد ، فالعوامل الجغرافية تهيئ سبيل ازدهار الحضارات.

والعوامل الاقتصادية مهمة أيضا فحتى لو كان الشعب يملك مؤسسات اجتماعية منظمة وتشريع خلقي وفنون مزدهرة، فإنه لن يزدهر بغير توفر سبل الحياة الحسنة، كالزراعة التي توفر له موردا هاما من الطعام تمكنه من التفكير في أشياء أخرى.

ومن شروط قيام الحضارة **العوامل المادية والبيولوجية** ولا بد أن يضاف إليها العوامل **النفسية الدقيقة**، فلا بد أن يسود الناس نظام سياسي، ووحدة لغوية التي توفر للناس وسيلة لتبادل الأفكار.

[11] موريس كروزيه ، تاريخ الحضارات العام، المجلد الأول، منشورات عويدات : بيروت ، 1987 ، ط2 ، ص18

ثم لا مندوحة أيضاً عن **قانون خلقي** يربط بينهم عن طريق الدين أو الأسرة أو المدرسة أو غيرها، وينتظم سلوكهم الناس كأن يكون بينهم بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وبعض الإيمان بالغيبيات، ولابد من تربية والهدف منها أن تكون وسيلة تنتقل الثقافة على مر الأجيال.

زوال الحضارة :

العوامل التي نشأت بها الحضارة قد يؤدي انعدام بعضها إلى تهدم أسس الحضارة فانقلاب جيولوجي خطير، أو تغيُّر مناخي شديد أو وباء شديد ، أو حدث اجتماعي أو اقتصادي كزوال العهد الإقطاعي، أو زوال الخصوبة من الأرض، أو فساد الزراعة بسبب طغيان الحواضر على الريف.

ويمكن أن نذكر أيضا استنفاد الموارد الطبيعية في الوقود أو المواد الخام، أو تغيُّر طرق التجارة تغيراً يُبعد أمة من الأمم عن الطريق الرئيسية لتجارة العالم، أو انحلال عقلي أو خلقي ينشأ عن الحياة في الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات، أو ينشأ عن تهدم القواعد التقليدية التي كان النظام الاجتماعي يقوم على أساسها، أو تركز للثروة تركزاً سيئ ينتهي بالناس إلى حرب الطبقات والثورات الهدامة والإفلاس المالي.

هذه هي بعض الوسائل التي قد تؤدي إلى فناء المدنية، إذ المدنية ليست شيئاً مجبولاً في فطرة الإنسان، ولا هي شيء يستعصى على الفناء، إنما هي شيء لا بد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً، فإذا ما حدث اضطراب خطير في عواملها الاقتصادية أو في طرائق انتقالها من جيل إلى جيل فقد يكون عاملاً على فنائها.

وهناك أراء مختلفة حول أطوار الحضارات من نشأتها وتطورها إلى زوالها، فقد حاول العالم الإيطالي" جيوفاني باتيستا فيكو" أن يحدد دورة الحضارة من ظهورها إلى سقوطها وهو يرى أن كل حضارة تمر في تطورها التاريخي بثلاثة عصور هي: عصر الأهلة،و عصر البطولة، وعصر الناس العاديين، وهو يعتقد أن الحضارة تنبثق من مرحلة الهمجية والبربرية ثم تمر بالمراحل الثلاثة المذكورة لتعود في الأخير إلى الهمجية والبربرية لتفسح المجال لظهور حضارة أخرى .

ويذكر أن في مرحلة الآلهة يسود المجتمع تفكير خرافي والخوف من ظواهر الطبيعة، ويكون الإيمان بسلطة الآلهة، فتكون سلطة المجتمع بأيدي رجال الدين ، والمجتمع يسوده الخشونة والشدة والقوة، وفي المرحلة التالية تنتقل السلطة تدريجيا إلى النبلاء ورجال السياسة والأغنياء، فيكون الحكم بأيدي رجال أشداء، ويكون عامة الشعب في منزلة الخدم والعبيد ، أما في المرحلة الثالثة فيتمكن عامة الشعب من تحصيل حقوقهم وينعمون بالمساواة وينهزم المستبدون وتسود أنظمة ديمقراطية، لكن الصراع الطبقي يضعف الروابط الاجتماعية وتزداد المشاكل والفتن ليدخل المجتمع في الانحلال والفساد ويعود إلى مرحلة البربرية والهمجية تدريجياً وتزول بذلك الحضارة .

ومن جهته الفيلسوف الألماني" شبينجلر" في كتابه "تدهور الحضارة الغربية " يرى أن الحضارة تشبه أي كائن بيولوجي من حيث حياتها لذا فهي تمر دوما بالأدوار التي يمر بها الكائن الحي فلكل طفولتها وشبابها نضجها و شيخوختها، وهو يسميها فصولا كفصول السنة حيث أن الأدوار الأولى هي دور الربيع والصيف تكون فيها الحضارة مشبعة بالروح الدينية يسوها الإصلاح الديني والهياج الحضاري، ثم تنتقل إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة الكهولة ويسميها خريف الحضارة وهي مرحلة الانتشار الكبير حيث تبدأ المنابع الروحية في النضوب وتظهر بوادر الشيخوخة، وهو يشبه هذه المرحلة بعصر "التنوير الاوربي".

أما المرحلة الأخيرة من مراحل الحضارة فهي النهائية حيث تصبح الحضارة بلا روح وتصير مادية بشكل كامل، وهذا المفكر يرى أن الحضارة الغربية وصلت في القرون العشرين إلى هذه المرحلة، فالحضارة قد حققت غايتها وبلغت ذروتها وما بعد الذروة إلا الانحدار بانطفاء شعلتها، وتموت بذلك الحضارة أو تنحل تحت تأثير روح أقوى منها أو لأنها حققت صورتها النهائية فتتوقف عن العطاء[12].

أما ابن خلدون فتشبه نظريته إلى حد ما نظرية جيوفاني باتيستا فيكو و أزوالد شبينجلر معاً، حيث يرى أن حياة الدول والشعوب تنتقل من طور البداوة والتوحش إلى حياة البذخ والترف ورقة العيش، لتصل في نهاية المطاف إلى سن الشيخوخة والهرم ثم الفناء،

[12] اسوالد سبنجلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة أحمد الشيباني ، منشورات دار ومكتبة الحياة : بيروت ، ج1 ، ص39،217

وهي تتشابه في ذلك مع الأطوار التي تعرفها حياة أي فرد من النوع الإنساني، بداء من فترة الطفولة والشباب، إلى الكهولة والشدة، ثم الشيخوخة والهرم[13].

أما طور البداوة فهو طور النشأة والتكوين تتميز الحياة فيه بالتقشف والبساطة تقتصر فيه الحياة على توفير الضروري دون التزود بالكماليات كمعيشة البدو في الصحاري والبربر في الجبال والتتار في السهول، أما الطور الثاني فهو طور الازدهار والبذخ تتحول فيه حالة الملك من البداوة إلى الحضارة، ومن خصائصها التفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة وبناء القصور والاستمتاع بأحوال الدنيا، أما الطور الثالث فهو طور الضعف والانهيار.

ويحلل ابن خلدون أسباب انهيار الدول بأن للأمر علاقة بالعصبية التي تكون شديدة في البداية، ثم تبدأ في الضعف حتى تتفكك العصبية ففي المرحلة الأولى أو الجيل الأول كما يسميه يكون الناس فيه على خُلق البداوة والخشونة ، وتكون سورة العصبية في قوتها فحسهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون.

اما في الجيل الثاني فيتحول حالهم بالملك والترف من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء، ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم ومجدهم

بينما في الجيل الثالث الذين ينسون عهد البداوة والخشونة، كأن لم تكن ويفتقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنوه من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عيالا على الدولة، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، وتسقط العصبية بالجملة فإن جاءهم المطالب لهم لم يقاموا بمدافعته، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، ويستكثر بالموالي، ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حين يتأذن الله بانقراضها[14] ، وقد تستمر الدولة طويلا في مرحلة الضعف إذا لم يهاجمهما عدو قوي وهذا ما يعنيه ابن خلدون بقوله إذا جاءهم المطالب لهم.

[13] ابن خلدون ، المقدمة ، ص 171-172
[14] ابن خلدون ، المقدمة ، ص171-172

أما أرنولد توينبي فنظرته الحضارية القائمة على التحدي والاستجابة، حيث يقول أنه على قدر التحدي تأتي الاستجابة، فعندما تصل الحضارة إلى مرحلة تعجز فيها عن الاستجابة للتحديات التي تجابهها، فإنها تدخل في مرحلة الانهيار، لكن ما الذي يجعل حضارة تعجز عن الاستجابة للتحديات؟ في رأي توينبي أن السبب الأساسي لهذا العجز هو عندما تفقد الحضارة قوتها الأخلاقية والروحية، أي عندما تشهد انهيارا في القيم والأخلاق والدين، يحدث انشقاق في كيان المجتمع بسبب عدم التوافق بين السلطة الحاكمة الشعب المحكوم أو نتيجة الصراع الداخلي، أو بسبب وجود خطر عليها من الداخل، وهو يرى أن الحضارة تمر بخمسة مراحل هي على التوالي :

1- مرحلة النشأة والنمو

2 - مرحلة الارتقاء والازدهار والتوسع السريع.

3- مرحلة الجمود والعجز عن التطور والإبداع والتجديد.

4- مرحلة الانحلال والتدهور الأخلاقي.

5- مرحلة السقوط والانهيار[15].

[15] إسماعيل محمد الزيود، إرهاصات النهضة في المجتمع العربي: دراسة سوسيولوجية في ضوء نظرية التحدي والاستجابة، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 40 ، العدد01، 2013، ص4-11